ان يمر كل يوم، في أبكر الصبح، ببيت أم سعد، ليسأل عن سعد، ويلحّ عليها ان تكتب اليه أنْ يعود ـ كي يقبضوا عليه، بالطبع ـ وذات يوم يكون الافندي قد قرر شيئاً ربما تفتيش البيت، لذا تراه يجول في هذا الحيز الضيق الذي هو البيت، ومع جولانه هذا نتعرف على البيت من الداخل، وعلى محتوياته: «ودار الافندي في غرفة الصفيح دورة بطيئة، يحدق الى الاشياء، ويرمق الافرشة المكومة في الركن، وصحون المعدن التي لم تغسل بعد، والسقف المعدني الذي بدأ يتوهج بحرارة الصيف، وكومة الوحل على الباب... وصار الافندي الآن في جهة الباب، ولكنه توقف عند النافذة الصغيرة المفتوحة في الجدار، ورفع من على رفها الخشبي خرقة قماش صغيرة مثلثة وملوّنة ومربوطة الى خيط سميك، وأخذ يلوح بها بين أصابعه: أهذا هو حجابك القديم؟»[١٣٩]. وكان الافندي قد لاحظ أن أم سعد ترتدي حلية هي عبارة عن «سلسلة من المعدن تنتهي برصاصة مدفع رشاش، مثقوبة قرب قاعدتها النحاسية ومفرغة من بارودها»[١٤٠]. فسأل: «ما هذا العقد يا أم سعد؟»[١٤١]. فأجابته أن هذا ليس عقداً، إنه حجاب: «حجاب جاء به سعد»[١٤٢].

ليس ثمة في هذا البيت شيء ينطوي على قيمة من قيم الالفة، ولا تحتوي غرفة الصفيح غير أفرشة مكوّمة باهمال، وصحون معدنية لم تجد أم سعد حاجة ولا وقتاً لغسلها لأن وقتها ذاهب للعمل في بيوت الآخرين، وغير كومة وحل على الباب، ووعد بأن يتوهج السقف ناراً في الصيف، ولا تنطوي هذه الخصائص، مجتمعة، على شيء غير الدلالة على الوقوع تحت قهر الضرورات الطبيعية والاجتماعية، وعلى غياب أي من أبعاد العلاقة الانسانية الطبيعية التي تصل الانسان بالمكان، ولا شك أن هذه الضرورات ستظل ضاغطة على أم سعد، مثل غيرها من اللاجئين المنفيين، ذلك لأن «ثورتهم» لم تجيء كي تحسن شروط الحياة في المنفى، بل من أجل إعادة الحياة في أفق مستقبل مفتوح فوق أرض الوطن، وأم سعد تدرك ذلك، وتنتظر! لا... بل أنها تفعل، تبث روح الثورة والتفاؤل في النفوس، وتشيع الامل في مستقبل يتخلق على وقع خطوات حشد عرف كيف يصير حشداً، وتقدم أولادها واحداً تلو الآخر، وتتطلع بملء وجدانها وقناعتها أن تذهب الى الاغوار، مع الفدائيين، تطبخ لهم، وتعيش معهم في خيامهم لأن «خيمة عن خيمة تفرق»، تماماً مثلما تختلف دلالة حجاب عن حجاب.

ويبدو أن الحجاب هو الأبرز من بين محتويات البيت المهملة، والواضح انه كان من أشياء أم سعد الحميمة، تضعه في صدرها، وفي شغاف القلب، وتنتظر البركات واجتراح المعجزات التي تبدل حالاً بحال، ولقد طال انتظار أم سعد، فهي قد احتفظت بالحجاب الذي صنعه لها «شيخ عتيق» منذ كانت في فلسطين، غير ان الكارثة وقعت، وسقطت فلسطين، واقتلعت أم سعد من «الغسية» وقذف بها الى منافي الارض، ولم يجد الحجاب نفعاً، ولم تكف أم سعد عن الاحتفاظ به، وانتظار اللحظة التي يتفجر فيها ما ينطوي عليه الحجاب من مفعول أكيد! ومثلما انتظرت «أم سعد» مفعول الحجاب انتظرت مفعول الجيوش العربية، فجاءت هزيمة ٦٧ لتؤكد ان الجيوش العربية، كالحجاب تماماً، لا مفعول لها، وأن كليهما محض خواء مطلق، وأن فلسطين لن تعود لأبنائها، إلا إذا قرر أبناؤها ان يذهبوا اليها... وحين ذهب سعد، وذهب رفاقه، وتأهب سعيد للذهاب، تأهبت أم سعد لتحولات عميقة في وعيها فاستبدلت الرصاصة بالحجاب القديم، وليس بلا دلالة أن سعداً نفسه هو الذي جاء بالرصاصة الى البيت وتركها بين ثنيات الفراش، وأن أم سعد هي التي قررت تحويل الرصاصة الى عقد؛ حجاب جديد، وهي التي قررت أن تضعها في صدرها، فطلبت من ابن الجيران ان يثقبها ويخرج بارودها، ويربطها في سلسلة، فتلك هي المسافة بين جيلين، بين وعيين، وتلك هي دلالة القدرة الفائقة لدى أم سعد ـ الصوت والنموذج الدال على تلك الطبقة الباسلة المسحوقة والفقيرة والمرمية في